

قضايا لغوية في كتاب أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين لابن دحية الكلبي

الأستاذ: محمد الأمين مصدق

جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)

ملخص:

مدار هذا المقال بحث في جملة من القضايا اللغوية التي تناولها ابن دحية الكلبي في كتابة أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين. فبالرغم من كون الكتاب يتناول موضوعا تاريخيا إلا أن المؤلف لم يغفل التعرض لبعض الجوانب اللغوية التي تخدم بحثه، وتجلي ما أراد أن يبينه ويوضحه للمتلقى، نظراً لبعده مأخذ كثير من الألفاظ، وغرابة بعض الاستعمالات الواردة في نصوصه. واختارنا بعضها مبتغين توضيحها والتعقيب عليها، والبحث عن تخريجاتها من مظانها، عسى أن يقف القارئ على المعاني والدلالات التي أراد المؤلف أن يوصلها إليه من خلالها.

الكلمات المفتاحية: مسائل، اللغة؛ أعلام النصر المبين؛ صفين؛ ابن دحية.

Abstract

this article is looking after a number of linguistic issues dealt by the Ibn Dahya al-Kalbi in the writing of the shown flags of victory in the differentiation between the people of siffin. Despite the fact that the book deals with a historical subject, the author did not overlook the exposure to some linguistic aspects that serve his researchs, and helps them to clarify what he wanted to explain to the reader, because of the difficulty of many words and the strangeness of some uses contained in the texts. And i have chosen some of them under the desire of clarify them and comment on them, and to search for their references from the certified sources, so that the reader may stand on the meanings that the author wanted to convey to him through them.

Keywords: issues; language; flags of shown victory ; Siffin; Ibn Dahya.

مقدمة:

إن علماءنا الموسوعيين على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم عنوا باللغة العربية بعدها أسمى اللغات وأفضلها، وأكثرها قدرة على حمل المعاني وإبلاغ المقاصد، كما اهتموا بتعلمها وتعليمها وتسابقوا في ميدان الإبداع بها، وبرهان ذلك ما تجده من أسلوب مائع عند قراءتنا لكثير من الكتب، حتى تلك

التي لا تندرج في بوتقة الأدب واللغة، مثل المؤلفات التي تناولت مواضيع تاريخية، ككتاب أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين لابن دحية الكلبي.

وتناول هذا الكتاب موضوعاً تاريخياً مداره حديث مقتضب عن حدث تاريخي بارز هو معركة تاريخية شهيرة وفاصلة بين فرقتين مسلمتين تقاتلتا في أواخر العقد الثالث من القرن الأول للهجرة. ولا يعزب عن ذهن القارئ الحصيف ورود جملة من القضايا اللغوية التي بثها المؤلف في حيثيات كتابه وفق ما يقتضيه المقام، بحكم أنه كان لغوياً بارعاً ونحوياً متبحراً، فاستغل درايته باللغة في شرح ما استعصى وتوضيح ما استغلق، وتقريب ما بُعد مأخذه، وبسط جملة من المسائل التي لها فائدة كبيرة. وسوف نحاول تناول ستّ مسائل من الكتاب بالعرض والتحليل والتعقيب بغية الاستفادة منها منطلقين من إشكالية هي: ما هي أهمّ المسائل اللغوية التي حواها كتاب أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين لابن دحية الكلبي؟

الكتاب والمؤلف:

يدخل هذا المؤلف في إطار التأليف التاريخي الذي يتناول أخبار الفتن والمعارك التي وقعت بين المسلمين في الصدر الأول من الإسلام، ومن أشهر هذه المعارك معركة صفين التي وقعت بين معاوية وعلي رضي الله عنه بعد مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه.¹

ونظراً لأهمية هذه الواقعة في التاريخ الإسلامي، فقد عني العلماء بتسجيل أحداثها، منهم أبو مخنف لوط بن يحيى (ت 170 هـ)، ونصر بن مزاحم المنقري (ت 212 هـ)، وأبو الخطاب ابن دحية الكلبي، وأكثر الشعراء في وصفها؛ حيث دارت رحاها مائة يوم وعشرة أيام، وبلغت فيها الوقائع تسعين واقعة، وقتل فيها سبعون ألف قتيل.²

أما مؤلف الكتاب فهو أبو الخطاب الحافظ ابن دحية الكلبي الأندلسي البلسني الحافظ المعروف ببني النسبين الذي ولد عام 544 هـ. ذكر أنّ أمّه من نسل الحسين رضي الله عنه، وكان من أعيان العلماء المشاهير الفضلاء، متقناً للحديث، وعارفاً بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها، لقي كثيراً من العلماء، كما رحل إلى المغرب ومصر والشام والعراق وخراسان، توفي سنة 633 هـ.³

ومن أهمّ مؤلفاته: الإرشاد في الحض على طلب الرواية والإسناد، استيفاء المطلوب في تدبير الحروب، أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، تاريخ الأمم في أنساب العرب والعجم. وذكر

المؤلف أنه ألف هذا الكتاب؛ لأنه سُئل عن أخبار صفين: «وما جرى فيه بين المسلمين المختلفين، وفضل علي رضي الله عنه على التعيين، فوجب أن [يبين] ذلك أحسن تبين».⁴

المسألة الأولى:

تحدث المؤلف عن لفظة "صفين" وهي المنطقة التي جرت فيها هذه المعركة الكبرى بين الفئتين العظيمتين في غرة صفر سنة سبع وثلاثين⁵، «ولفظ صفين في حال الرفع والنصب والجر واحد»⁶، أما نطاقها الجغرافي الدقيق فقد حدده ياقوت الحموي في معجم البلدان؛ حيث قال: «وهو موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس»⁷.

ويذهب ابن دحية إلى أن هناك من ينطق "صفون" في حالة الرفع «تشبيها بالجمعوع المعربة»⁸؛ أي جمع المذكر السالم، وعلى هذا فصفين محمولة في قياسها على أضرابها من الملحقات بجمع المذكر السالم مثل "عزين، عضين، أولون.."، ويستشهد المؤلف لهذا الاستعمال بما ورد في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من كتاب الجامع الصحيح للبخاري، ونصه: ﴿وَقَالَ أَبُو وَائِلٍ: شَهِدْتُ صِفِينَ وَبُنُسْتُ صِفُونَ﴾⁹، فعلة إعرابه بالحروف جريانه «مجرى الجمع وما كان من الواحد على بناء الجمع فإعرابه كبناء الجمع»¹⁰.

ويحتج المؤلف بأعلى النصوص وأسمقها وهو القرآن الكريم للتدليل على صحة هذه القاعدة وجريانها على سنن كلام العرب، وتحديدًا في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيَيْنَ وَمَا أَذْرَاكَ مَا عَلَيُونَ﴾¹¹. قال السمين الحلبي في الدرر المصون: «وعليّون جمع عليّ أو هو اسم مكان في أعلى الجنة، وجرى مجرى جمع العقلاء، فرفه بالواو ونصب وجر بالياء، مع فوات شرط العقل»¹²؛ أي إنَّ عليّون وأشباهاها تُعامل معاملة جمع المذكر السالم، فحكمه الإعرابي حكم هذا القسم من الجمعوع على سبيل الإلحاق لا على سبيل الأصالة؛ لأنَّ من شروط جمع المذكر السالم أن يكون للعاقل، ويوضح هذا ابن عطية الأندلسي في تفسيره؛ حيث يقول في تفسير الآية السابقة: «فلما كان هذا الاسم على هذا الوزن لا واحد له أشبه عشرين، فأعرب إعراب الجمعوع؛ إذ أشبهها، وهو أيضا مثل "قنسرين"، فإنك تقول: طابت قنسرون ودخلت قنسرين»¹³.

ويدلّ على أرجحية هذه المسألة ما احتج به المؤلف أيضا من الشعر العربي، وهو قول الأعشى الكبير (ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف ت 7 هـ):¹⁴

تخله فلسطيناً إذا ذقت طعمه *** وأتيت قنّسرين وهذه قنّسرون

وقد قال ياقوت الحموي بأنها تجري «مجرى قولك الزيدون فتجعلها في الرفع بالواو، فتقول هذه قنّسرون، وفي النصب والخفض بالياء فتقول مررت بقنّسرين ورأيت قنّسرين».¹⁵

المسألة الثانية:

أورد المؤلف أبياتاً قيلت منصرفاً القوم من صفين منسوبة لمحمد بن عمرو بن العاص بن وائل السهبي القرشي¹⁶ ونسبها بعضهم لأخيه الصحابي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه (ت 63 هـ)،¹⁷ وهي:

فلو شهدت جمل مقامي ومشهدي ... بصقّين يوماً شاب منه الذوائب
عشية أتى أهل العراق كأنهم ... من البحر موج لّج متراكب
وجئناهم تترى كأن صفوفنا ... شهاب حريق دفعته الجنائب
فقالوا لنا: إنّنا نرى أن تباعوا ... عليّاً، فقلنا: بل نرى أن نضارب
فطارت إلينا بالرماح كوماتهم ... ووطننا إليهم بالأكف قواضب
إذا نحن قلنا استهزموا عرضت لنا...كتائب وأثخنت منهم كتائب
فلا هم يولون الظهور فيه...فرارا لفعل الخادرات الدرائب

وبحثا عن توجيه نحوي لقول الشاعر "أن نضارب" يحتج المؤلف بأقوال النحويين الذين يذهبون إلى أن «أن هنا مخففة من الثقيلة محذوفة الاسم تقديره أنّنا نرى أن نضارب»¹⁸. وينقل مذهب أحدهم وهو أبو سعيد السيرافي (ت 368 هـ) شارح كتاب سيبويه؛ حيث استشهد بأبيات غير منسوبة وردت في قرآن النحو، وهي:¹⁹

يا صاحبي فدّت نفسي نفوسكما ... وحيثما كنتما لأقيتُما رشداً
أن تحملاً حاجة لي خفّ محملها ... تصنعا نعمةً عندي بها ويداً
أن تقرأني على أسماء ويحكّما ... مني السلام، وأن لا تُشعرا أحداً

وتقدير الكلام «أنكما تقرأن».²⁰ ولكن بعد تمحيص الصفحة المذكورة آنفاً في شرح كتاب سيبويه ألفينا أن السيرافي لم يخرج هذا البيت؛ وإنما خرج البيت الثاني؛ حيث بين أن بعض العرب ربّما رفعوا ما بعد "أن" تشبيهاً "بما"،²¹ ثم يقول بعد ذكر الأبيات لتعليل وجه هذا الاستعمال، «والمعنى فيه : أسألكما أن تحملا».²²

واحتج المؤلف بقراءة زعم أنها من القراءات العشر، قائلا: «وقد قرئ لنا ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾²³ بالرفع، وتقديره: أنه يتم، وهي من القراءات العشر».²⁴ وقد جانب الصواب المؤلف هنا؛ لأن القراءة شاذة وليست متواترة؛ أي من القراءات الأربعة عشر، وتحديدًا قراءة محمد بن عبد الرحمن بن محيصن (ت 123 هـ).²⁵

المسألة الثالثة:

ينقل المؤلف الحديث المتواتر المشهور، وهو حديث الفئة الباغية، وصب اهتمامه نحو شرح ألفاظه والبحث عن استجلاء معانيه، واستنباط الدلالات المستقاة منه، ونصّه حسب رواية مسلم من الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِعَمَارٍ حِينَ جَعَلَ يَحْفِرُ الْخَنْدَقَ وَجَعَلَ يَمْسَحُ رَأْسَهُ وَيَقُولُ: بُؤْسُ ابْنِ سُمَيَّةَ تَفْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ»²⁶.

ويحاول المؤلف أن يشرح كلمة البؤس لغويًا قائلا: «البؤس والبأس كلّ الشدة في الحال وفي النفس وبؤس بغير تنوين مصدر»²⁷، فالمؤلف يساوي بين المفردتين في المعنى "البأس، والبؤس"، والظاهر أن بينهما فرقًا بينهما؛ فالبأس يدلّ حسب استعماله على المعنى الإيجابي والسلبي؛ أي على البلاء والشدة التي تفتّ عضد الإنسان وتشيب ناصيته، وتدلّ على الشجاعة والإقدام والقوة والصبر، فقد جاء في لسان العرب لابن منظور حول البأس: «البأس: العذاب. والبأس: الشدة في الحرب... ورجلٌ بئس شجاع»²⁸، أما البؤس فيدلّ على معنى الافتقار والحاجة والمذلة والخزي وقلة ذات اليد دون احتواءه - في ما يبدو - على المعاني الإيجابية على الإطلاق، قال ابن منظور: «الشدة والفقر وبئس الرجل بؤسا وبأسا وبئسا إذا افتقر واشتدت حاجته»²⁹.

ويحاول المؤلف أيضا البحث عن المعنى اللغوي لقوله صلى الله عليه وسلم "الفئة الباغية": فالفئة هي «الجماعة والفرقة من قولهم فأئت رأسه وفأوته أيضا إذا شققته»³⁰، ويستشهد المؤلف بقول الله عز وجل في محكم تنزيله ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾³¹، «أي فرقتين يعني انقسمتم في ذلك واختلفتم»³². أما معنى الباغية فهو «الفئة الظالمة والمستطيلة أيضا؛ لأنه مأخوذ من البغي وهو الظلم، وأصله الحسد»³³، قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾³⁴، «البغي: هو الكبر والظلم والحقد والتعدي؛ وحقيقته تجاوز الحد، وهو داخل تحت المنكر، لكنه - تعالى - خصه بالذكر اهتماما به لشدة ضرره»³⁵.

المسألة الرابعة:

ينقل المؤلف وصية الإمام علي رضي الله عنه لأصحابه يوم صفين، وهم يستعدون لخوض غمار هذه الحرب التي تشيب منها النواصي، ومنها قوله «وصلوا السيوف بالخطا والرماح بالنبل».³⁶

ويحمل المؤلف على عاتقه مهمة شرح بعض المفردات الواردة في هذا النص لصعوبتها وبعده مأخذها، وبعد أن يشرح أكثر ما ورد فيه من ألفاظ مستصعبة، يصل إلى شرح العبارة السابقة فيقول عن الخطا: «جمع خطوة وهي باع الرجل في الأرض، يقال: خطوات خطوة في المصدر بالفتح، هذا قول الفرّاء. وقال غيره في خطوة وخطوة بمعنى واحد. وقيل الخطوة بالفتح الفعل، والخطوة بالضم ما بين القدمين. والمعنى أنه يقول: إذا قصرت عن الضرب تقدّمتم وأسرعتم حتى تلحقوا».³⁷

وكعادته يستطرد ليدخل في نكتة نحوية آتٍ ببيانها، ويستشهد لبراعة الاستخدام السابق بقول قيس بن الخطيم:³⁸

إذا قصرت أسيفنا كان وصلها....خطانا إلى أعدائنا فنضارب

ويذكر المؤلف أن سيبويه أنشد هذا البيت على هذه الشاكلة، وهي الرواية نفسها التي وجدنا - بعد اطلاعنا - أن الأعلام الشنتمري أوردتها في "النكت"³⁹، وهي أبيات مخفوضة القوافي، وأنشده النحويون في باب الجزاء؛ لأنه جازى به بإذا ضرورة «حتى كأنه قال: إذا قصرت أسيفنا كان وصلها خطانا، ولذلك قال: فنضارب أي فنضارب، ثم جاء بعد ذلك بياء الوصل وعطف فنضارب على مكان كان لأنّها مجزومة بالموضع».⁴⁰ قال الأعلام: «فجازى بإذا ضرورة وقصرت في موضع جزم بإذا، وكان جوابها وموضعها جزم، فعطف فنضارب على موضعها، وكسر للوصل بعد الوقف على ما يجب في القوافي، ولو أن القافية مرفوعة لرفع "نضارب"، ولم يكن في البيت ضرورة».⁴¹

ويستشهد المؤلف أيضا بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَقَ وَأَكْنُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾⁴² وقال: «القراءة بتسكين النون هي قراءة الجميع سوى أبي عمرو بن العلاء، فإنه فتح النون، وعطف الباكون على موضع أصدق؛ لأنّ الفاء لو أسقطت لكان مجزوما».⁴³

ولا ندري ماذا قصّد المؤلف بقوله "قرأ الجميع" (القراءات السبع أو العشر أو الأربعة عشر). وللتوضيح فقد ذكر ابن عطية أن جمهور السبعة والناس قرؤوا "وأكن" بالجزم عطفًا على الموضع،

وليس القراءة بنصب النون مقصورة على أبي عمرو، فقد قرأ بها الحسن، وأبورجاء، وابن أبي إسحاق، ومالك بن دينار، وابن محيصن، والأعمش، وابن جبير، وعبيد الله بن الحسن العنبري.⁴⁴

المسألة الخامسة:

يتناول المؤلف البيت المذكور أنفاً لقيس ابن الخطيم في المسألة السابقة؛ أي قوله:

إذا قصرت أسيفنا كان وصلها...خطانا إلى أعدائنا فنضارب

ويؤكد أن الشاعر الأنصاري الشُّجاع أطلق لفظ الأسيف لكنّه أراد السيوف؛ لأنّ الأسيف من أبنية أقلّ العدد؛ أي إنّها وزنها الصّرفي "أفعال" داخلٌ في بوتقة جموع القلّة، وهي أربعة: "أفعلة، أفعال، أفعلة"، «وجمع القلّة يدل حقيقة على ثلاثة فما فوقها إلى العشرة...وما عدا هذه الأربعة من جموع التكسير فجموع كثرة».⁴⁵ قال ابن مالك الجيّاني (محمد بن عبد الله الطائي ت 672هـ) في ألفيته:⁴⁶

أَفْعِلَةٌ، أَفْعُلُ ثُمَّ فِعْلَةٌ *** ثُمَّتْ أَفْعَالٌ جُمُوعٌ قِلَّةٌ

وعليه فالشاعر حسب المؤلف «لم يذهب إلى أنّ أسيفهم قليلة بل كثيرة؛ لأنّهم عدد كثير لا قليل، لكنّه وضع أدنى العدد موضع بناء أكثر العدد»⁴⁷، ومن أجل الاستدلال على صحّة هذا الاستعمال، وتبيان وجود نظائره في الشعر العربي تسوّغ التخرّيج البلاغي الذي اختاره المؤلف يستشهد بقول الصحابي الشاعر حسان بن ثابت الأنصاري في قصيدته المشهورة:⁴⁸

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُيْلَمَعَنَ بِالضُّحَى *** وَأَسِيفُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا

وذكر الأستاذ سعيد الأفغاني في كتاب "أسواق العرب في الجاهلية والإسلام" أنّ نابغة بني ذبيان (زياد بن معاوية بن ضباب المري ت 18 ق.هـ) كانت تنصب له قبة من آدم (جلد أحمر) في سوق عكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء، وأنشده حسان بن ثابت فيها يومًا البيت السابق، والبيت الذي بعده حيث يقول:⁴⁹

وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنِي مُحَرِّقٍ ... فَأَكْرَمَ بَنَا خَالًا وَأَكْرَمَ بَنَا ابْنَمَا

وفي ما يخص البيت الأول المذكور، فالمؤلف يذهب إلى أنّ الشاعر قال أسيفنا «وأراد سيوفنا، ومثله كثير، أعني وضع بناء أدنى العدد موضع بناء أكثر العدد»⁵⁰، ثم نلفيه ينقل هذا البيت وأربعة

أخرى معه من القصيدة نفسها، ويقرّر في قراءة نقدية أنّ حسنا أراد بالجففات الكثرة، «وقال الضحى ولم يقل الدجى؛ لأنه نبه بالأدنى على الأعلى، وقال أسيف؛ لأنّ النكاية مع القلة أمدح، وقال يقطرن ولم يقل يسلمن؛ لأنّ أدل على مضاء الضربة وجودة القطع».⁵¹

والمؤلف يخالف في تحليله النقدي ما ردّ به النابغة الذبياني على حسان؛ حيث روي أنّ الناقد الجاهلي استضعف شعريّة حسان، معلّلاً ذلك بقوله «إنّك قلت: الجففات، ولو قلت الجفان لكان أكثر، وقلت: يلمعن في الضحى، ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح؛ لأنّ الضيف بالليل أكثر طروفاً، وقلت: يقطرن من نجدة دما، فدللت على قلة القتلى، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك، فقام حسان منكسراً».⁵²

وقد نقل الإمام العيني في "المقاصد النحوية" البيت السابق (لنا الجففات الغر..)، في شواهد جمع التكسير، وقال أنّ النابغة خاطب حسان بن ثابت: «إنّك شاعر لولا أنّ بيتك معيب من ثلاثة أوجه؛ لأنّك قلت: جففات وأسياف يقطرن، ولم تقل: جفان وسيوف يجرين، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك، وقلت: يلمعن بالضحى، ولم تقل: يبرقن في الدجى، ولو قلت كان أبلغ في المدح؛ لأنّ الضيف بالليل أكثر».⁵³

المسألة السادسة:

يذهب المؤلف إلى أنّ الإمام عليّاً بن أبي طالب رضي الله عنه هو أوّل من وضع النحو للمتعلّمين⁵⁴، وهذا الذي ذكره ابن أبي الحديد في نهج البلاغة؛ إذ قرّر أنّه «هو الذي ابتدعه وأنشأه، وأملى على أبي الأسود الدؤلي جوامعه وأصوله، من جملتها: الكلام كلّ ثلاثة أشياء: اسم وفعل وحرف، ومن جملتها تقسيم الكلمة إلى معرفة ونكرة، وتقسيم وجوه الإعراب إلى الرفع والنصب والجر والجزم».⁵⁵

وذكر الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين في أخبار النحويين البصريين أنّ أبا الأسود الدؤلي (ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن حلس ت 69 هـ) «هو أوّل من أسّس العربيّة، ونهج سبلها، ووضع قياسها، وذلك حين اضطرب كلام العرب، وصار سرّة الناس ووجوههم يلحنون، فوضع باب الفاعل والمفعول به، والمضاف، وحروف النصب والرفع والجر والجزم».⁵⁶

كما ذكر أيضا أنّ أبا الأسود سُئل عمن فتح له الطريق إلى وضع النحو وأرشدته إليه، فقال: «تلقيته من علي بن أبي طالب رحمه الله. وفي حديث آخر، قال: ألقى إليّ عليّ أصولاً احتذيت عليها».⁵⁷

وذكر السيرافي في أخبار النحويين البصريين أنّ أبا الأسود كان من خاصّة أصحاب الإمام عليّ رضي الله عنه، كما كان من المتحققين بمحبّته ومحبة ولده، وأخذ عنه العربيّة «فكان لا يُخرج شيئاً مما أخذه عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى أحد حتى بعث إليه زياد: اعمل شيئاً تكون فيه إماماً ينتفع الناس به، وتُعرب به كتاب الله».⁵⁸

وجاء في وفيات الأعيان لابن خلكان: «وهو أول من وضع النحو، قيل: إنّ عليّاً رضي الله عنه وضع له: الكلام كلّ ثلاثة أضرب: اسم وفعل وحرف، ثم رفعه إليه وقال: تمّم على هذا».⁵⁹

ونقل الذهبي في تاريخ الإسلام روايات كثيرة تفيد أنّ أبا الأسود الدؤلي أخذ النحو عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقد «أمره عليّ رضي الله عنه بوضع النّحو، فلما رأى أبو الأسود ما صنع قال: ما أحسن هذا النحو الذي نحوت، ومن ثمّ سمّي النحو نحواً».⁶⁰

وقال ياقوت الحموي في معجم الأدباء أنّ أبا الأسود: «هو أول من تكلم في النّحو، وهو من أهل البصرة.. أتى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، ذهبت لغة العرب لما خالطت العجم، ويوشك إن طال عليها زمان أن تضمحلّ. فقال له: وما ذاك؟ فأخبره خبر ابنته. فأمر فاشترى صحفاً بدرهم وأملأ عليه: الكلام كلّ لا يخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى».⁶¹

ومن أبرز الباحثين المحدثين الذين يذهبون هذا المذهب سعيد الأفغاني؛ حيث يقول: «أول من أرسل في النحو كلاماً أبو الأسود الدؤلي، وقيل إنّ عليّاً هو الذي ألقى على أبي الأسود شيئاً من أصول النحو، ثم قال: انحُ هذا النّحو».⁶²

وكلّ هذه الأخبار المستقاة من أمّات الكتب العربيّة تدل بما لا يدع مجالاً للشك أنّ أبا الأسود هو حابك خيوط هذا العلم، وصاحب قدم السبق في بلورته بأمر من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعد أن تبصّر الرّجلان – وهما من هما من الحنكة والحكمة والذكاء والفطنة والرياسة- بضرورة وضع أسس يستند إليها متكلّم العربيّة حتى يصون لسانه عن الخطأ والزلل؛ لأنّ اللحن طفق يفسّو ويكثر بين النّاس.

خاتمة:

يمكن القول في ختام هذا البحث إن ابن دحية الكلبي قد عرض في كتابه لجملة من المسائل اللغوية الهامة التي تناولنا بعضها بالتحليل والتعقيب والتخريج. وذكر المؤلف لها وتناولها إياها يشي بكون الرجل صاحب دراية كبيرة ومعرفة واسعة باللغة العربية نحوها وصرفها وبلاغتها وحتى نقدها، كما يدل على اطلاعه الكبير وحفظه الواسع لكثير من الأشعار والآثار والأخبار، كما ينم عن حرص كبير التزم به المؤلف من أجل خدمة القارئ وتقريب المادة له، وشرح ما يستعصي عليه، وتوضيح ما بعد مأخذه. وبالرغم من كون الكتاب مندرجاً في بوتقة الكتب التاريخية إلا أن المؤلف يستطرد في كثير من الأحيان من أجل شرح الألفاظ والعبارات، وهذا دأب العلماء الموسوعيين المتبحرين في العلوم، أصحاب الحذق في اللغة العربية. وهذا الذي لوحظ في هذا الكتاب من اهتمام بمسائل اللغة ينسحب على كثير من الكتب العربية الأخرى التي تناولت مواضيع التاريخ والأخبار والمغازي...

هوامش البحث:

- 1- ينظر: ابن دحية الكلبي (أبو الخطاب عمر بن الحسن بن دحية الكلبي ت 633 هـ)، أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، تح: محمد أمحزون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998م، ص: 13.
- 2- ينظر: ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الحموي) 626 هـ، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، (دط)، (دت)، 414/3.
- 3- ينظر: ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ت 681 هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 450-448/3.
- 4- ينظر: ابن دحية الكلبي، أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص: 45.
- 5- ينظر: الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب ت 310 هـ)، تاريخ الأمم والملوك، تح: مصطفى السيد وطارق سالم، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط2، 2016م، 95-94/3.
- 6- ابن دحية الكلبي، أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص: 55.
- 7- ياقوت الحموي، معجم البلدان، 414/3.
- 8- ابن دحية الكلبي، أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص: 55.
- 9- البخاري (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَزْدَجَة الجعفي ت 256 هـ)، صحيح البخاري، مؤسسة زاد للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1433هـ-2012م، ص: 1033. باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس، والحديث من رواية عبدان عن أبي حمزة عن الأعمش، ورقمه 7308.
- 10- ابن دحية الكلبي، أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص: 55-56.
- 11- سورة المطففين، آيتان 18، 19.

- 12-السمين الحلبي (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن محمد بن مسعود ت 756 هـ)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، 10-723.
- 13- ابن عطية الأندلسي (أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر ت 541 هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح وت: الرحالة الفاروق وآخرون، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، ط2، 1428هـ-2007م، 562/8.
- 14-ابن دحية الكلبي، أعلام النصريين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص: 56.
- 15-ياقوت الحموي، معجم البلدان، 3/414.
- 16-المرجع نفسه، ص: 64.
- 17-ينظر: ابن عبد ربه الأندلسي (أبو عمر أحمد بن محمد ت 328 هـ)، العقد الفريد، تح: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1404هـ-1983م، 5/91.
- 18-ابن دحية الكلبي، أعلام النصريين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص: 66.
- 19-السيراقي (أبو سعيد الحسن بن عبد الله المرزبان ت 368 هـ)، شرح كتاب سيبويه، تح: أحمد حسن مهدي وعلي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2017م، 32/1.
- 20-ابن دحية الكلبي، أعلام النصريين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص: 67.
- 21-ينظر: السيراقي، شرح كتاب سيبويه، 32/1.
- 22-نفسه، 32/1.
- 23-سورة البقرة، الآية: 233.
- 24-ابن دحية الكلبي، أعلام النصريين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص: 67.
- 25-ينظر: أحمد بن محمد البناء، إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، تح: أحمد بن محمد البناء، عالم الكتب بيروت، ط1، 1407هـ-1987م، 1/440.
- 26- النوي (أبو زكريا يحيى بن الشيخ أبي يحيى شرف بن مربي بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام ت 676 هـ)، شرح صحيح مسلم، خرّج أحاديثه، محمد بن عيادي بن عبد الحلیم، مكتبة الصفا، القاهرة، ط1، 1424هـ-2003م، 18/32.
- 27-ابن دحية الكلبي، أعلام النصريين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص: 86.
- 28-ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي ت 711 هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 20/6.
- 29-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 30-ابن دحية الكلبي، أعلام النصريين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص: 86.
- 31-سورة النساء، الآية 88.
- 32-ابن دحية الكلبي، أعلام النصريين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص: 86.
- 33-المصدر نفسه، ص: 86.
- 34-سورة النحل، الآية: 90.
- 35-القرطبي (محمد بن أحمد بن أبي بكر بن قزح كنيته أبو عبد الله ت 671 هـ)، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تح: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1427هـ-2006م، 12/414.

- 36- ابن دحية الكلبي ، أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص: 104.
- 37- المصدر نفسه، ص: 106-107.
- 38- قيس بن الخطيم (أبو يزيد بن عدي الأوسي ت 2 ق هـ)، الديوان، تح: إبراهيم السامرائي، وأحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1381هـ-1962م، ص: 34. وفي هذه الطبعة وردت (للتقارب) بدل (ففضارب).
- 39- ينظر: الأعلام الشنتمري، النكت في تفسير كتاب سيبويه وتبيين الخفي من لفظه وشرح أبياته وغريبه، تح: رشيد بلحبيب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1420هـ-1999م، 347/2.
- 40- ابن دحية الكلبي ، أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص: 107.
- 41- الأعلام الشنتمري، النكت في تفسير كتاب سيبويه، 347/2.
- 42- سورة المنافقون، الآية 10.
- 43- ابن دحية الكلبي ، أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص: 107.
- 44- ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 316/8.
- 45- محمد بن صالح العثيمين، شرح ألفية بن مالك، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 1434هـ-2013م، ص: 736.
- 46- نفسه، ص: 736.
- 47- ابن دحية الكلبي ، أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص: 107.
- 48- حسان بن ثابت (أبو الوليد بن المنذر الخزرجي الأنصاري ت 35-40 هـ)، الديوان، تح: عبد أمهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1414هـ-1994م، ص: 219.
- 49- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 50- ابن دحية الكلبي ، أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص: 108.
- 51- نفسه ص: 109.
- 52- سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، بيروت، ط3، 1393هـ-1974م، ص: 315-316.
- 53- الإمام العيني (أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد الحنفي ت 855هـ)، المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، تح: علي محمد فاخر، أحمد محمد توفيق، عبد العزيز محمد، دار السلام، القاهرة، ط1، 1431هـ-2010م، 2041/4.
- 54- ابن دحية الكلبي، أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، ص: 148.
- 55- ابن أبي الحديد (عز الدين عبد الحميد بن هبة الله ت 656 هـ)، شرح نهج البلاغة، دار الكتاب العربي، بغداد، ط1، 1428هـ-2007م، ص: 13.
- 56- الزبيدي (محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج ت 379 هـ)، طبقات النحويين والغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط2، ص: 21.
- 57- نفسه، الصفحة نفسها.
- 58- أبو سعيد السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة، 1474هـ-1955م، ص: 11-12.
- 59- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 535/2.
- 60- الذهبي (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ت 748 هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1410هـ-1990م، 279/5.

61- ياقوت الحموي، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993، ص: 1465/4-1466.

62- سعيد الأفغاني، في أصول النحو، المكتب الإسلامي، بيروت، 1407هـ-1987م، ص: 160.